مرحلة ما بعد الهزيمة

obeikandl.com

obeikandl.com

عاش عبد الناصر بعد هزيمة 5/ 6/ 1967م ثلاث سنوات وثلاثة أشهر و23 يومًا حتى هلاكه في 28/ 9/ 1970 : سمًا أو غمًا : الله أعلم .

حين ننظر إلى هذه الفترة الآن لا نستطيع أن نهرب من مواجهة حقيقة لم تخف على أحد ـ وإن أخذت أسماء عديدة ـ وهي أن عبد الناصر كان يتحلل تدريجيًا وينكمش ، وأخذت أوراق لعبة السياسية تتكشف بجلاء حتى لمحبيه والباقين على حماسهم لشخصه ، ومع إحساسه بفقدان هيبته وتأثيره الأول ـ خاصة عندما قامت أول مظاهرات معارضة له في أوائل عام 1968م بعد صدور أحكام ما تعرف بقضية الطيران ـ لم يجد عبد الناصر حرجًا في أن يدين أسلوب المظاهرات بشكل مطلق حتى تلك المظاهرات الوطنية التي شارك فيها في الثلاثينيات في الإسكندرية ، والتي طالما افتخر بها كدليل على نضاله الوطني منذ صباه ، وظهر عبد الناصر في التليفزيون يلقي خطابًا غاضبًا على الأمة ويعالج موضوع مظاهرة الطلبة بأسلوب ناظر مدرسة يمسك العصا وإن كان يؤجل استعمالها لعدم ثقته في قوته وتأرجح مركزه وتكلم عن الطلبة على أساس أنهم : " شوية عيال مش فاهمين حاجة " ، وقال إنه لن يعاقب ولن يعتقل أحداً منهم لكنه سيتركهم لآبائهم يؤدبونهم ـ على أساس أن الآباء قد ذاقوا بطشه ولم ينسوه بعد! ـ ولوّح ـ بلا خجل ـ لماضيه العريق في إصدار قرارات الاعتقال ظلمًا وبلاً روية قائلاً : " أنا كنت أقدر أحبسهم . . أنا في 1965م أصدرت قراراً باعتقال 18 ألف في يوم واحد! " ـ متناسيًا أن تراكمات هذه المظالم هي التي أدت إلى هزيمته وفشله .

وأدرك غالبية المثقفين الشرفاء أن عبد الناصر لم يتسامح مع هذه المظاهرات

المحتجة لطيبة قلبه، ولكن لأنه فعلاً لم يعد قادراً على أن يقوم بدور "الوحش الكاسر" ضد الشعب المصري. هذا الدور الذي أجاد أداءه قبل أن تسقط آخر أوراقه وتكتمل هزيمته بفضيحة حرب الأيام الستة، وأخذ الوضع يتدهور فبدأ يلجأ إلى تكتيكه التقليدي وهو أن يشعل البلد في ضجة بلا طحن أو طحين، وبدأت هذه الضجة الفارغة بإنزال قيادات حزبه السري لكي تقيم يوميًا ندوات لمناقشة الاستعدادات للمعركة والإجابة عن تساؤلات الناس: لماذا لا نكون جيشًا شعبيًا ونمارس حرب عصابات تنطلق عبر الضفة الأخرى من القناة، ولا تعطي المحتل فرصة يهدأ فنعوق استقراره حتى ننتهي من إعادة بناء الجيش؟ ـ مثل الدور الذي كان يقوم به الشعب المصري ضد معسكرات الإنجليز وضد تواجدهم في القناة سنوات مطلع الخمسينيات قبل الثورة.

وحضرت وقتها ـ بصفتي الصحفية ـ مؤتمراً عقده السيد عبد المجيد فريد في حي العباسية ـ الذي أسكن به ـ وكان يقول للناس ـ ببرود مع استخفاف محكوم وملجوم بحرج الموقف ـ ما معناه: "لا تشغلوا بالكم أنتم بهذه الموضوعات واستمروا في العمل والإنتاج، وثقوا بأن القيادة السياسية عين ساهرة لا تنام! فقط عليكم تهيئة جو الهدوء! حتى نفكر بذهن صاف.. وإن شاء الله.. إن شاء الله حنخوض المعركة بس أعطونا فرصة نستعد!".

وأيقنت ساعتها أن هذه الندوات ليست إلا حفلات "زار" لإنهاك الشعب المجروح في دوامتها إلى أن تمتص طاقة حزنه العصبية، وتهدهده لكي ينام ولا يفتح عينيه على المصائب التي توالت بعد الهزيمة من قبول للقرار 242 ـ الذي يتضمن اعتراف مصر بحدود آمنة معترف بها لإسرائيل ـ إلى مبادرة روجز إلى مذبحة المقاومة التي ارتكبها الملك حسين ملك الأردن ـ وكانت المقاومة الفلسطينية تذبح في أيلول ـ سبتمبر الأسود سنة 1970م، وكان الشعب المصري يضع على أذنه المذياع، ويستمع

إلى صرخات العطاشى ونداءات المقاتلين، وهو مذهول لصمت وتلكؤ عبد الناصر واللجنة التي كونها من الباجعي الأدعم من تونس وجعفر النميري من السودان والقذافي من ليبيا للذهاب إلى الأردن لمشاهدة ما يحدث، وتقديم تقرير عنه! ثم ازداد ذهول الشعب المصري لاستقبال عبد الناصر للملك حسين والاجتماع به في القاهرة بعد مذبحته الإجرامية، وكانت الناس تتساءل غير مصدقة: هل هذا هو عبد الناصر؟ هل هذا هو عبد الناصر؟

وأذكر أنني دخلت مستاءة مكتب رئيسي: رئيس تحرير مجلة المصور وقلت له: كيف يستقبل عبد الناصر الملك حسين بعد كل هذا؟ فقال لي: صحيح استقبله لكنك لا تعرفين أنه رفض أن يصافحه! ـ مضافًا إلى كل هذا كانت التنازلات الواضحة المستمرة عن مبدأ الاشتراكية ـ ولو أنه كان مجرد شعار ـ وبدأت العودة إلى تدعيم القيم التي كانت السلطة وكتابها من قبل يزجرونها ويسمونها "القيم البرجوازية"! بدأ تدعيم هذه القيم "البرجوازية" من خلال المجلات والصحف، ومعها تدعيم نزعة الإقليمية المصرية، والتراجع عن نزعة القومية العربية وتمثل هذا في احتضان وتشجيع مسرحية مريبة من القطاع الخاص! اسمها "ياسين ولدي" لفرقة تحية كاريوكا من تأليف فايز حلاوة وإخراج كرم مطاوع تطرح نزعة الإقليمية المصرية عالية وحادة إلى درجة الهستيريا ـ مماثلة للنغمة التي ارتفعت في جنازة يوسف السباعي 19/ 2/ 1978 حين ارتفعت الهتافات التي خرجت عن العقل: لا فلسطين بعد اليوم! ـــ وركزت المسرحية على نغمة أن كل المصائب التي حدثت لمصر العروس الجميلة بسبب العرب ـ بحيث أصبح العرب لا الكيان الصهيوني هم أعداء الشعب المصري ـ ورغم السماجة الفنية التي عرضت بها هذه المضامين الخربة المريضة لاقت هذه المسرحية رواجًا بين الكتاب والصحفيين، لا فرق بين من يدعى أنه تقدمي مؤمن بالقومية العربية وبين من هو مثل موسى صبري ـ ثلاثة رقصوا حتى ماتوا من الإعجاب بهذه

المسرحية هم: د. يوسف إدريس، يوسف السباعي، موسى صبري، وحضر هذه المسرحية ممثلون للسلطة السياسية ـ شعراوي جمعة وزير الداخلية وضياء الدين داود وعبد المحسن أبو النور، وخرجت الإشاعات تقول: إن شعراوي جمعة قدم عونًا ماليًا لفرقة تحية كاريوكا كعربون إعجابه بمسرحية "ياسين ولدي" ــ كانت تحية كاريوكا مصدر هذه الإشاعات فقد كان يعجبها أن تلقي على نفسها ظلال الثقافة والسياسة. وكانت تريد أن ترهب من يهاجم المسرحية، والطريف أنها أقسمت ـ حين سمعت بمهاجمتي للمسرحية ـ أنها سوف تضربني لو وجدتني في مسرحها مما دفعني إلى حضور المسرحية مرتين دون جدوى إذ إنها لم تضربني للأسف! ـ ورغم التقييم العام بأن السلطة السياسية لم تكن أرفع مستوى من عقلية تحية كاريوكا، إلا أن الدهشة ظلت لا تفارق المثقف الشريف ضمير الشعب المصري ـ وربما مثل الدهشة أمام الموت رغم أنه قديم وحق ـ تلك المسرحية ترمي إلى إشاعة حالة مرضية من الشفقة على النفس لدى الشعب المصري المتعب المجروح المخذول موهمة إياه أن المصائب جاءته بسبب انغماسه وتعاونه العربي، وذلك بقصد تحويل إصبع اتهامه إلى صدر العروبة بديلاً عن صدر السلطة المصرية المهزومة، المسئولة حقًا وفعلاً بقيادة جمال عبد الناصر عن نكبات الشعب المصري.

كانت بطاقات المسرحية تصل إلى خمسة جنيهات وما فوق ولم يكن لجماهير مصر الفقيرة أن تدفع ربع هذا المبلغ الباهظ، ولذلك قررت إدارة التليفزيون عرضها على شاشتها حتى قبل أن ينتهي العرض إمعانًا في نشر الرسالة الضالة المضلة على أكبر عدد من الناس. والغريب أن بعد كل هذا الاحتفاء من سلطة عبد الناصر ومراكز قوته بتحية كاريوكا، وفايز حلاوة، وجدناهما حين أطاح السادات بمراكز القوى يخرجان مع من خرجوا من تحت إبطي السادات لاعنين سابين مراكز القوى، وأصبحا مع من أصبحوا من أعلام الثقافة في عصر "ثورة!" مايو الساداتية، ولكن لا

عجب . . ألم يكن السادات نفسه مركزًا من مراكز القوة في سلطة عبد الناصر، وأحد الرؤساء في الحزب الطليعي السري الذي أنشأه عبد الناصر سريًا على الشعب المصري حتى يطوقه من كل منفذ! فبينما كان محظوراً على الشعب أن ينشئ تنظيمًا سريًا ضد الحكومة أباحت الحكومة لنفسها إنشاء التنظيم السري[1] ضد الشعب، مستمرة في سرقة الشعب دوره وحقوقه على كل شكل.

في نفس الوقت منعت السلطة السياسية وعوقت الكثير من مسرحيات القطاع العام ـ الذي كان لا يزال يتعامل مع بعض الكتاب الشرفاء الموالين لشعارات عبد الناصر الخاصة بالاشتراكية والتقدمية، والمعارضين للواقع الكاذب الذي لا يحقق اشتراكية أو تقدمية أو نضالاً شعبيًا أو نظاميًا. وكان من هؤلاء الكاتب المسرحي اليساري ميخائيل رومان الذي قدم مسرحية "العرضحالجي ـ الزجاج" وأوقف عرضها لاشتداد حدة تفاعلها مع جمهور المشاهدين حيث كانت صرخة ضد الزيف والهوة الواقعة بين القول والفعل. أما مسرحية الشاعر نجيب سرور "آه يا ليل يا قمر" وصرختها:

"مصر يا أمة يا منكوبة دايمًا
بالخيانة، والخناجر في الضهور . . ."

فقد كانت هدفًا لهجوم منسق من قبل نقاد وكُتاب الحزب الطليعي السري لارتفاع نغمة الحزن بها[2]! ولم يرحب كُتاب الحزب الطليعي السري ـ مع ترحيبهم بياسين ولدي إلا بمسرحية غريبة ـ مريبة كذلك ـ لعبد الرحمن الشرقاوي اسمها "وطني عكا"[3]. عكست منذ 1969م خط الدعوة للسير حثيثًا نحو الصلح والاعتراف بإسرائيل.

---

(1) كان محظوراً على الشعب أولاً أن ينشئ تنظيمًا علنيًا يقوم بمهمة المعارضة.
(2) انظر ملحقات رقم (1).
(3) انظر ملحقات رقم (2).

في هذا الطقس الذي استمر منذ 1967م إلى هلاك عبد الناصر . كان كل الصادقين من أبناء مصر يشعرون أن دفة الأمور لم تكن تسير وفق ما يجب أن يكون، كنا جميعًا نشعر أن علينا أن نستعد بتكريس كامل جاد للردّ على هزيمة 5/ 6/ 1967م كنا نؤمن ـ مع كل الشعب ـ بضرورة تكوين جيش لخوض حرب شاملة "صادقة" تؤدي فعلاً حقيقيًا ضد العدو بلا استعراض واجهات تجارية كاذبة، وكنا نرى بوضوح أن سياسة عبد الناصر وإجراءاته تجري في اتجاه مضاد لما يريده الشعب المصري المخذول. كنا نرى "السياحة السياسية" مستمرة تمامًا كما كانت قبل الهزيمة، وكان عبد الناصر يتكلم في النهار عن النضال وما يجب أن يسترد بالقوة، وفي النهار أيضًا كانت سلطات قمعه تحرق كل بذور ونوايا النضال، وكان محمد حسنين هيكل يخرج لنا كل جمعة بأفيون صراحته، يغالط في ضوء الشمس كل الحقائق الصارخة ويقول: "إننا لا نستطيع أن نحارب مثل فيتنام لأن فيتنام دولة فقيرة وشعبها بدائي وليس لديه ما يخسره، أما شعب مصر فشعب عريق لديه السد العالي والأهرامات ولا يجب أن يعرضها للدمار والنسف بدخولها حربًا مثل حرب فيتنام" ــ انظر مقالات هيكل بالأهرام ما بين 6/ 1967 إلى 12/ 1967م ـ واستمر هيكل يركز على الحل السلمي وفقًا لقرار 242 ـ المعترف بإسرائيل ـ وأن الحرب الوحيدة الممكنة هي حروب استنزاف لفرض الحل السلمي، وكان يقدم منطقًا تعجيزيًا يوهن من عزيمة الشعب المصري بقوله: "إنه لا يمكن الحرب ضد إسرائيل لأن الحرب معها تعني الحرب مع أمريكا، ونحن لا يمكن أن نناطح أمريكا، واخترع خرافة اسمها "تحييد أمريكا"!

كانت مقالات هيكل السامة دائبة السعي لإنهاك معنويات الشعب المصري وسحقها، وكان يبدو في مقالاته ديناصوراً ساديًا كريهًا لكنه كان يرضي بمقالاته وروحه هذه الكثير من شرائح المثقفين المهزومين والثوريين مع وقف التنفيذ ـ "بتوع نضال آخر زمن في العوامات" كما وصفهم الشاعر نجم ـ وكانت هذه الشرائح

ـ بطبيعة ذاتية أنانية ـ تبحث وسط الخراب عن المكسب الذاتي والمصلحة الشخصية، وكانت ترى في راية الكفاح الشعبي ومواصلة الاستعداد للدفاع من أجل استعادة كل الأراضي المحتلة بالقوة. كانت ترى في هذه الراية ما يهدد استقرارها وراحتها، لذلك قامت هذه الشرائح بتبني مقولات هيكل، وصورته في هيئة الرجل العاقل الواقعي غير المتهور، إذ وجدت في صراحته الكاذبة صياغة رائعة لما يجول في ضمائرها ويخدم أهدافها ـ كان أهم ما أبدع فيه هيكل هو إعلانه أننا انتصرنا في الحقيقة ـ رغم خسارة الرجال وضياع الأرض ـ ونصرنا هو أن نظام عبد الناصر لم يسقط وبالفعل صرنا نحتفل بعبد الناصر رغم الهزيمة!.

إلى جانب شرائح محمد حسنين هيكل الثقافية، وثقلهم الديناصوري على أنفاس الشعب المصري. بدأت شرائح الشعب المستضعف والمثقفين الصادقين يجدون حزنهم وآلامهم وكبتهم يتبلور ويتم التعبير عنه بقوة وجرأة من قبل كيان فني مفاجئ فرض نفسه على الأوساط الثقافية والسياسية رغم أنف الجميع. فلقد بدأت الأغنيات السياسية للكيان الفني أمام ـ نجم[4] تظهر، لتفرض صراحة كل ما يزفر به صدر الشارع المصري. وبدت هذه الأغنيات كسلاح قوى ـ في جبهة المقاومة الثقافية ـ يدحض مغالطات هيكل وصوت سيده. وبدأ كل مغتاظ يقرش تحت أضراسه:

"بصراحة يا أستاذ ميكي. . . (المقصود هيكل)
إنك رجعي وتشكيكي
قاعد لا مؤاخذة تهلفط
وكلامك رومانتيكي
ولا ناوي تبطل تكتب

(4) انظر ملحقات رقم (3).

بصراحة كلام بولوتيكي
عن دور الحل السلمي
واستعماله التكتيكي
في الوقت اللي احنا صراحة
دايخين دوخة البلجيكي
وبلدنا لسه جريحه
وبتصرخ بالأفريكي :
لو بات التار يا اولادي
حيبات الذل شريكي
والشعب يقول يا بلادي
بالروح والدم افديكي
وحاجات بصراحة بتحصل
في بلدنا يا أستاذ ميكي
بصراحة لا انت معايا
ولا طالل من شبابيكي
وكأنك مثلاً موميا
للسلطان الأنتيكي
أحياها لاستعمالها
الاستعمار الأمريكي
رجعت على هيئة :
ميكي ! "

* * *

obeikandl.com

وأغنية تسخر من صحافة عبد الناصر بأكملها وتوسمها الخير في مجيء نيكسون بعد ذهاب الرئيس الأمريكي جونسون :

" قولوا هأ أو أو قولوا هاء
على صحافتنا الغير غراء
ا با تا ثا ج ح ألف باء
جونسون روح
نيكسون جاء ! "

مع أغنية تصرخ بالاحتجاج على مقولة : النصر رغم الهزيمة ! . . .

" ايه يعني شعب في ليل ذله
ضايع كله
ده كفاية بس لما تقول له :
إحنا الثوار !
وكفاية أسيادنا البعدا
عايشين سعدا
بفضل ناس تملا المعدة
وتقول أشعار .
أشعار تمجد وتماين
حتى الخاين
وإن شاء الله يخربها مداين
عبد الجبار ! "

كان المقصود بـ " عبد الجبار " عبد الناصر . وسمع عبد الناصر هذه الأغنيات وهاج وقال لشعراوي جمعة : " ناس بتقول الكلام ده ولسه واقفه على

obeikandl.com

رجليها؟! " . وقرر شعراوي جمعة إلقاء القبض على الشيخ إمام والشاعر نجم ـ مع نعتهما بالشيوعية ـ وسجنهما مدى الحياة بلا محاكمة عقوبة لهما على التعبير عن آلام الشعب المصري .

وقتها اقترح هيكل علاجًا خسيسًا أفضل وهو احتواؤهما وإفسادهما بالمال والشبع حيث قال : " دي صرخة جوع شبعوهم! " ، وفعلاً جرت محاولات لتقديمهما في الإذاعة والتليفزيون ، ونشرهما من خلال أصوات فايدة كامل ، محمد رشدي ، ليلى نظمي! وصاحب ذلك موجة ساخنة تكتب عنهما في صحف السلطة بحماس . أبرزها كتابات رجاء النقاش الذي كان واسطة تنفيذ مخطط السلطة لاحتواء الفنانين المعدمين . . لكن ما لبث المولد أن انتهى عند اكتشاف أن " إمام ـ نجم " صعلوكان لا أمل في احتوائهما ، وأنهما ما زالا مستمرين في كتابة وغناء آلام وأوجاع الشعب المصري بأسلوب نقد لاذع سافر موجه في تركيز واضح ضد السلطة المهزومة . وبناء على ذلك تم تنفيذ القرار ، ودخل إمام ونجم السجن مدى الحياة . . لكنها كانت مدى حياة عبد الناصر التي لم تستغرقهم غير ثلاث سنوات في السجن . . أخرجهما بعدها أنور السادات مطلقًا سراحهما . . لكنه عاد واعتقلهما بعد شهور حين استمرا يعبران عن حس الشعب المصري الذي لا يخيب ، والذي أدرك ـ على الفور ـ أن السادات ليس سوى تكملة لمشوار عبد الناصر في إرهاق الشعب المصري بالزيف والكذب . . والشعارات المراوغة الطنانة . . وبالقمع . . والقهر . . سياسة مستمرة . . فلا يوجد في الواقع أي تناقض بين نظام عبد الناصر والسادات . . ولكنهما حلقتان متتابعتان في خيط واحد يبدأ منذ سرقة ثورة الشعب المصري ليلة 23 يوليو 1952م ، ثم سرقتها مرة أخرى عام 1954م .

* * *

وتعجب للناصريين الذين يتبجحون اليوم بإدانة إجراءات 3 سبتمبر 1981م

الـــسوداء دون إدانـــة إجـــراءات مذبحـــة الاعتقـــالات في صـــيف 1965م الأسود . . ويتبجحون برفض اتفاقية كامب ديفيد ـ راكبين موجة الرفض الإسلامي ـ وتسألهم : أليس قرار 242 هو القرار الذي قبله معبودكم عبد الناصر؟ ومـا كامـب ديفيد إلا تكملة المشوار الذي بدأه زعيمكم ذو الخـوار! ويبكـون متمـسحين حبًـا في خالد الإسلامبولي ، وتربد وجوههم التمساحية عندما تشير إلى أكفهم المضرجة بدماء الشهيد الوضيء سيد قطب والشهداء اخوته الآباء الشرعيين للبطولة الفذة التي تجلت في فدائيتهم حين قاموا يهتفون للروح الإسلامية المنتصرة :

" في ســـــــبيل الله قمنـــــــا "
" نبتغـــــي رفـــــع اللـــــواء "
" لا لحـــــزب قـــــد عملنـــــا "
" نحـــــن للـــــدين الفـــــداء ! "

وسوف " يهلضم " الناصريون ردًا على تساؤلك ولن تفهم منهم وسط الشقشقات والطقطقات ـ والبلطجة معظم الوقت ـ إلا نفس الطنين الناصري المعهود والضجيج الذي بلا طحن أو طحين .

وإنا لله وإنا إليه راجعون وعدًا حقًا .

صافيناز محمد كاظم

القاهـــرة : 1/ 1403هـ
10/ 1982م

* * *

obeikandi.com